الفصل الأول

1 ـ وقفة مع الهوية .
2 ـ حوار الثقافات ، حوار الحضارات مبادئ أولية .
3 ـ وقفة أخرى عند هوية أخرى .
4 ـ القوة والحضارة .
5 ـ كيف نتعامل مع التاريخ ونحن نطرح مفهوم الحوار .
6 ـ كيف يرى الغربيون التعامل مع التاريخ .

obeikandl.com

obeikandl.com

وقفة مع الهوية

قبل أن ندخل في الحوار من نحن؟ ومن هو الآخر النقيض؟ من يمتلك الهوية؟ ومن يبحث عن هوية؟ وهل مستقبل البقاء والوجود مرهون بمن له هوية؟ وهل عدم البقاء والوجود مرهون بمن ليس له هوية؟ من يستطيع أن يناقش صدام الحضارات أو حوارها؟ هل هو من يمتلك الهوية أم فاقدها؟ قد نعقد البحث فيصبح في إطار الفلسفة الجدلية التي قد لا تصل إلى حل مقنع تماماً، وقد نبسط الأمور فنحسمها ونستريح.

فمنذ أكثر من ثمانين عاماً والهوية العربية الإسلامية تتعرض للأزمات والاهتزازات والضربات، لكن الهوية تبقى الهوية لأنها ليست نتاج شخص أو قرن من الزمان.

فهي بالمحصلة تلك الملامح الراسخة منذ حمل العرب راية الإسلام العالمي الإنساني، ورسخوا مبادئ المساواة والعدالة بين الأفراد والشعوب.

ومنذ زمن بعيد والحركة الصهيونية تبحث عن هوية لليهود فلا تجد، وبقيام الكيان الصهيوني ظن بعض مفكري الصهيونية أن مشكلة الهوية اليهودية قد حُلت، ولم تمضِ الخمسون عاماً الأخيرة حتى أسقط في أيدي زعماء الحركة الصهيونية، وراحوا يبحثون من جديد عن هوية تربط اليهودي بأرض فلسطين، وكأن كل الجهود التي بذلت من قبل الحركة الصهيونية ذهبت أدراج الرياح، فلا استطاعوا أن يخلقوا القناعات لدى اليهود بأن أرض فلسطين هي أرض الميعاد حقاً، ولا استطاعوا أن يكيّفوا اليهود مع ملامح هوية حاولوا أن يصنعوها من خلال القوة والاقتصاد والاستيطان والإرهاب والبطش والربط بالعالم الغربي اجتماعياً ونفسياً وتكنولوجياً.

من هنا كنا قد طرحنا في البداية سؤالاً يقول: من نحن؟ ومن هو النقيض الآخر؟

وإذا كان لا بد من التبسيط فأننا نقول: إن صراعنا اليوم مع قوى الصهيونية وحلفائها هو صراع من يمتلك الهوية مع من يبحث عن هوية.

ونعتقد أن من لا يمتلك الهوية مهما امتلك من إمكانات مادية وتكنولوجية لن يبقى، وسيفقد وجوده مادام يواجه من يمتلك هوية راسخة قديمة قدم التاريخ وإن

حاربه الظرف فبات ضعيفاً من حيث الإمكانات العسكرية والتكنولوجية أمام الطرف الآخر، وإذا كان لا بد من الانتقال من التبسيط إلى البحث فإن بين أيدينا حيثيات عديدة، لا بد من إعادة قراءتها قراءة واعية حتى نجيب عن الأسئلة التي طرحناها.

من نحن؟ ما موقفنا من حوار الحضارات أو صدامها؟

يبدو أن السؤال يجد عشرات الأجوبة بعدد أصحابها، ولكل أن يقول عن نفسه من هو، ولكن من الصعب أن يقول من نحن كأمة وكشعب عربيٍ، فإذا أخذنا بتحديد هويتنا الموجودة عبر الزمن ونحن ننظر إلى الأطراف النقيضة في العالم وجدنا أنفسنا في إطار هوية عربية إسلامية لا ننفك عنها ولا تنفك عنا، ونحن نفهم هويتنا من خلال الانتماء إلى هذه الأرض، وإلى تاريخها، وإلى عقيدتها الإسلامية، وإلى ما أنتجته من حضارة وثقافة صُدِّرَت إلى العالم في نتاجات العمران والطب والفلك وبقية العلوم والثقافات الفكرية والأدبية وغيرها، وكذلك من خلال استمرارنا كبشر، وكنتاج عقلي وفكري فوق هذه الأرض وعبر جدلية التاريخ الخاص بنا.

وأعتقد أننا حين نطرح هويتنا في هذا المعيار لا نجد من يقول غير ذلك إلا إذا كان ممن يرفضون التاريخ والعقيدة، ويرفضون الانتماء للحضارة العربية الإسلامية بكل تجلياتها المادية والمعنوية.

ولربما نجد من يتمردون على هذه الأمة فيرفضون الانتماء لها، ولكن ليس هناك ما يزعج كثيراً لأن الهوية العربية والإسلامية قدر حتمي وليس اختياراً فردياً يظهر متى يشاء صاحبه ويختفي متى أراد اختفاءه، وأعتقد أن مفكري هذه الأمة أضاعوا أو ضيعوا الوقت الطويل وهم يبحثون عن ملامح هوية لا تناقض في أساسياتها، فتارة يرفعون العروبة فوق الإسلام، وتارة يتعصبون للإسلام على حساب العروبة، وفاتهم أن العروبة والإسلام لا ينفصلان لأنهما نسيج واحد، وفاتهم الفهم الصحيح لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

فهذا القرآن الكريم الذي هو لأمة إسلامية واسعة الانتشار أنزل باللغة العربية الشريفة، وهذه اللغة العربية أهم ملمح من ملامح العروبة.

كيف يمكن فصل العروبة عن الإسلام، تلك هوية كُتب لها أن تبقى على الرغم من كل الحروب النفسية والفكرية والجغرافية التي يشنها أعداؤها عليها.

نحن لا نبحث عن الهوية لأنها نحن، ونحن الهوية ما دمنا نمتلك لغتنا وتاريخنا وعقيدتنا وأرضنا، وليس من مدعاة للقلق والخشية من المستقبل الذي يريدون أهم ملامحه حوار الحضارات، وعندما نطرح سؤالنا من هو الآخر النقيض؟ فإننا بداية نضع وصف النقيض حتى نبين أن الكيان الصهيوني هو النقيض لأمتنا ووجودنا، وهو الطرف الأكثر خطورة، فنحن أصحاب هوية لا نخاف حواراً مع من يمتلك حضارة وهوية لأنه بالمحصلة يمتلك شخصية لها ملامحها، يمتلك تراثاً وتاريخاً وأرضاً، لكن الكيان الصهيوني لا يمتلك أرضاً، ولا حضارة، وليس صاحب ثبات في مكان حتى يؤسس حضارة يشهد لها علم الآثار والتاريخ الإنساني، ويهود الكيان لا يمتلكون هوية يقاتلون من أجلها، فهم يقاتلون ليس دفاعاً عن هوية، إنما لأنهم جبلوا على حبِّ العداء والاعتداء، وعلى التماهي مع الفوقية والعنصرية، وهم لا يعرفون كيف يحبون الإنسانية أو الحوار معها، ولا يفهمون إلا مسألة واحدة وهي: أن اليهودي مقدس وغيره من الخلق ليس إلا بهائم أو مخلوقات دون البشر.

وإن قالوا: إن اليهودية هويتنا، قلنا: إن الدين اليهودي ليس هوية، ففي الكيان الصهيوني اثنان وثمانون عرقاً، واثنتان وثمانون جنسية، واثنان وثمانون لوناً ولغة، فكيف يكون لهؤلاء هوية موحدة وهم يعودون بأصولهم وفروعهم إلى اثنين وثمانين عرقاً أو جنساً؟

ثم إذا كان الدين اليهودي هوية فهي قائمة على فلسفة وضيعة منحرفة، فالتوراة كتاب وضعي أُلف على مدى مئات القرون حتى اكتمل بشكله الحالي، وليس التوراة توراةً واحدة، فهناك التوراة العبرانية، والتوراة السامرية، والتوراة اليونانية، فأي توراة تمنح اليهودي هوية؟

وإذا كان الفكر الصهيوني يظن أنه يوحد اليهود من خلال فلسفة الحركة الصهيونية فإنه بعد بضع عشرات من السنين يعترف هذا الفكر أن الصهيونية لم تستطع حتى هذه اللحظة أن تخلق روابط حقيقية بين اليهودي كفرد وبين أرض فلسطين، وقد كان شعار شارون رئيس وزراء الكيان الصهيوني الحالي أنه سيعيد

لليهود ارتباطهم بأرض فلسطين، وهذا الشعار ما كان ليُقال لولا وجود أزمة انتماء حقيقي لدى اليهود المتواجدين فوق أرض فلسطين بالاحتلال والقوة.

ولعل ما زاد في أزمة الانتماء لدى الصهاينة في فلسطين المحتلة الانكفاء العسكري الذي بدأ منذ عام (1982م) وحتى الآن، فاليهودي الذي يعيش في مستوطنات الجليل أدرك أن هناك مقاومة عربية إسلامية تستطيع أن تهزم جيشه وتقول له: لا أمان لك فوق أرضنا، واليهودي الذي يواجه الانتفاضة المباركة أدرك أنه لا يمكن العيش في هذا الجحيم، وأدرك أن هذه الأرض يعيش عليها شعب له جذوره وهويته ويرفض التدجين والاحتلال، لقد فات الصهاينة أن ينتبهوا أن العمل على صنع هوية لا يكون من خلال اعتبار أن الشعب العربي ميت أو مخدّر، وتجربة الصهاينة مع فلسطينيي (1948م) أثبتت أن الكيان الصهيوني لا يمكن أن يحقق هوية لليهود، فالأرض ترفضهم لأنها عربية الجذور، والثبات في مكان مفقود تموج به الزلازل فلا يمكن أن يصنع حضارة أو ثقافة تعترف بها الشعوب الحضارية وتستفيد منها وتتثاقف معها.

ولعل الدعوات الجديدة التي يطلقها بعض المؤرخين والمفكرين اليهود تحت شعار ما بعد الصهيونية تفصح عن أزمة حقيقية، أزمة البحث المتواصل عن صيغة تخلق ما يسمى هوية لليهود المتواجدين في فلسطين المحتلة.

وجميعنا يذكر تلك الشعارات الانتخابية التي رفعها باراك وغيره كشعار (إسرائيل واحدة) وشعار شارون (إعادة الربط بين اليهودي وأرض إسرائيل) وغيرها من الشعارات التي أصبحت تعبر عن هاجس خوف شديد من المصير الذي ينتظر اليهود، المصير الذي سببه فقدان الهوية، فقدان الشخصية، فقدان المعادل الموضوعي للقوة والتفوق العسكري.

فالقوة العسكرية لا تصنع هوية، ولا التجمع الأمني المتوتر يصنع شخصية، ويحضرنا الآن ما جاء في آخر رواية (غبار) للكاتبة الصهيونية يائيل دايان على لسان بطل الرواية (إن كل ما صنعناه وكل أحلامنا ليست إلاّ غباراً بغبار).

نعود فنختصر المعادلة ونقول: إن الصراع سيؤول إلى انكسار القوة الصهيونية ومشروعها الاستعماري لأنها لا تملك مقومات الهوية، ولن تكون في النهاية إلا صورة من صور القوى الأخرى الأمريكية والأوروبية التي بدأت تتآكل من داخلها، وتظهر فيها الاهتزازات النفسية والمرضية والانحراف الكلي عن المسؤولية الإنسانية التي كلف الإنسان بها منذ بدء الخليقة وحتى الآن.

لقد خُلق البقر والغنم لترعى في أرض الله الواسعة، وتنتج لبناً سائغاً شرابه، ولم تخلق كي تتغذى على البروتينات الصناعية فتنتج مرض جنون البقر والحمى القلاعية، ولا ندري متى ينتج العالم الغربي جنون البشر حتى يفقد الإنسان هويته ويصبح كاليهودي التائه، لا أرض تتحمله، ولا سماء تستقبله، ولا خلائق الأرض تستطيع التعامل معه.

حوار الثقافات... حوار الحضارات... مبادئ أولية

بين غموض المفهوم وتناقض الرؤى اشتدت الدعوة كثيراً إلى ما يسمى حوار الثقافات، أو حوار الحضارات، ولا سيما بعد تشابك الأفكار وتعقيدات الرعب من صراع قد يأخذ منحى حضاري يشمل الجانب العقيدي أو الحضاري أو سواهما.

ونحن ـ العرب والمسلمون ـ نطرح حوار الثقافات من منظورنا المستند على قاعدة الانفتاح على الآخرين، والغربيون أو بعضهم يطرحون حوار الثقافات من منظورهم المستند على قاعدة أنهم الأسمى ثقافياً والأقوى حضارياً، وعلى الطرف العربي الإسلامي أن يتقبل الثقافة الغربية بكل مفاهيمها ومعاييرها الأخلاقية والفكرية.

ويرى الغرب أن قيم الحرية والديمقراطية الغربية يجب أن تسود ويتمثلها الجانب العربي والإسلامي ويسعى إلى تطبيق آلياتها في المجتمعات العربية والإسلامية.

ونعتقد منذ البداية أن ما يقوله بعض المسؤولين الغربيين الكبار عن الإسلام وقيمه لا ينفي وجود وجه آخر ينفث سمومه صراحة ضد العروبة والإسلام، ويكافأ بأعلى جائزة دولية، فالأكاديمية السويدية منحت جائزة نوبل للروائي الهندي الأصل البريطاني الجنسية نيبول ليس لأن أدبه رفيع المستوى بل لأنه يعادي العرب والمسلمين.

وما نود قوله في هذا الإطار إن الدعوة لحوار الثقافات تحاول أن تنسف مفهوم حوار الحضارات، وقد يقول قائل: إن الثقافات جزء طبيعي من الحضارات، فلا يمكن أن تكون الثقافات بمعزل عن الحضارات، ومن السذاجة أن تفصلهما عن بعضهما، إذ أن الثقافة جزء مكون للحضارة بالطبع، لسنا في هذا مخالفين للمفهوم التقليدي للحضارة بوجهيها المادي والمعنوي، ولكننا ندرك الآن لماذا كثر الحديث عن مصطلح حوار الثقافات وتناسى الكثيرون مصطلح حوار الحضارات.

فيبدو أن حوار الحضارات وصل إلى طريق مسدود لا سيما بعد أن روجت أوساط كثيرة مفهوم صدام الحضارات الذي تصوره هنتغتون أو فوكوياما أو غيرهما من الذين صُوروا لنا وكأنهم أنبياء يتلقون وحي السماء، فحوار الثقافات يختصر الطريق أكثر حسب رأي بعض الغربيين ولا سيما أننا لن نصل إلى تفاهم كامل حول دور الإسلام الحضاري في الغرب والعالم وماله من فضل على أوربا أيام الأندلس والدولة العباسية في أوج مجدها الحضاري.

إذن فليكن حوار الثقافات لعلنا نحرك المجتمعات باتجاه تفاهم فكري ثقافي بين الشرق والغرب.

هل يعني حوار الثقافات التوجه نحو حوار معاصر بين الثقافات السائدة بمعزل عن الثقافة الإسلامية التراثية برمتها؟ أو التراثية الشرقية بشكل عام؟ هل يعني حوار الثقافات مجموعة الشعارات الغربية كالحرية والديموقراطية كما يفهمها الغرب؟ هل ما يطرح على مائدة الحوار معروف ومحدد أم هو غامض ومشوش الملامح؟ ما هي عناصر الثقافة وأجناسها كما يطرحها الغرب؟ ثم ما هي عناصر الثقافة وأجناسها كما نطرحها؟.

ما الثقافة العربية الإسلامية التي يفترضها الغرب لنا حتى نحاوره بشأنها ونحاوره بمدى تقبله لثقافة عربية إسلامية نفترضها نحن بمعزل عما يراه أو يتصوره؟

إذن فالحوار لا يتوقف عند شعار فقط، إنما يتشعب ويتسع ليكون منظومة متكاملة من الفكر والأدب والفن وحدود الفهم لآفاق القيم الكبرى.

وفي هذا السياق لا بد من أن ندرج مجموعة مصطلحات ثقافية كبرى يندرج في سلمها عدد كبير من القضايا الثقافية القابلة للحوار.

الحرية

كيف يتشكل مفهوم الحرية في العقلية الغربية، وكذلك كيف يتشكل مفهوم الحرية في العقل العربي الإسلامي؟

فضمن ما طرحه الفكر الغربي منذ الثورة الصناعية قبل عدة قرون وحتى الآن، تراكمت مفاهيم الحرية وغيرها في إطار غربي يصلح لتوجيه العقلية الاستعمارية في استعباد الشعوب، وشن الحروب، واستغلال ثروات الأمم وتسخيرها لمصلحة المجتمعات الغربية الصناعية.

وإذا كان هذا قد رافق مرحلة الاستعمار وألغي الآن حسب بعض الآراء إلا أن التراكم الفكري الثقافي على مدى قرون لم يستطع أن يغسل العقول الغربية كلية من آثار عقدة التمييز، وتصور الفروق العرقية والنفسية بين الشرق والغرب، فما نفهمه في إطار الحرية بالدرجة الأولى أن يكون أي شعب آمناً في أرضه، لا يخشى العدوان أو الاحتلال، فهل يرى الغرب أن الحرية لشعب فلسطين تقتضي أن يكون كل فلسطيني موجوداً فوق أرضه؟ أم يرى الغرب أن هناك خطوطاً حمراً لهذه الحرية لا يجب الاقتراب منها؟ كيف يُفهم مفهوم الحرية حسب الرؤية الغربية؟

لنقل إن الغرب يطرح على مائدة الحوار حرية التعبير، حرية التصرف، حرية التنقل، حرية السلوك، إضافة للحريات السياسية المتمثلة بالبرلمانات والأحزاب والانتخابات الحرة النزيهة.

فإذا كان مفهوم الحرية حرية التعبير يعني ذلك فهل يسمح لأي مفكر أن يهاجم الأساطير التوراتية اليهودية، والعنصرية التلمودية اليهودية؟

لماذا حوكم غارودي عندما عبر عن رأيه في المحرقة اليهودية الكاذبة؟ لماذا هاجموا الأب بيير والمؤرخين الفرنسيين الذين رفضوا مقولة الهولوكست؟

وهل تسمح بريطانيا أو غيرها أن يخرج مفكر يهاجم اليهودية والبروتستانتية كما هاجم سلمان رشدي ونيبول العرب والمسلمين؟

فنحن نعتقد أن الغرب يفهم حرية التعبير على أنها التشهير بكل قيم الشعوب وتراثها وعقائدها دون المساس بأي جانب يهودي أو بروتستانتي، فأنت عندما تفضح

زيف الصهيونية وعنصريتها فستكون لا سامياً أو عنصرياً، وسوف تحاكم حسب القانون الدولي.

أما حرية التصرف وكذلك السلوك فإن أول ما يتبادر إلى الذهن تلك الحرية الفوضوية في الممارسات الجنسية الإباحية المنتشرة كالنار في الهشيم، فإن كان مفهوم حرية التصرف والسلوك يعني وجود ثلث أطفال روسيا من اللقطاء، فإن هذا يعني أن المفهوم ليس حرية التصرف والسلوك، إنما هو تدمير السلوك والتصرف الإنسانيين، فإذا قيدنا نحن العرب والمسلمين مفهوم التصرف والسلوك بمجموعة روادع أخلاقية إنسانية نُعتبر ضد حرية التصرف والسلوك.

أما الحريات السياسية وملحقاتها فإن آلياتها تخضع لتقويم نسبي لا مطلق فيه، ففي أمريكا وبريطانيا ومعظم دول الغرب لا نرى سوى حزبين يتنافسان على الحكم، فإما محافظون أو عمال، وإما جمهوريون أو ديموقراطيون.

وإذا كان حوار الثقافات ينصب على مجمل الإنتاج الإبداعي كالأدب والفن بكل أشكاله فنحن العرب والمسلمين أكثر الشعوب تعاطياً مع الأدب العالمي، ولا نعتقد أن مثقفاً لا يعرف ما ينتجه الأدب الغربي من رواية محترمة أو مسرحية متقدمة، وإذا عدنا إلى مجمل الإنتاج الأوربي الروائي منذ أكثر من ثلاثة قرون نراه حاضراً في قراءاتنا وأفكارنا وإعجابنا، ومن منا لم يعجب بما قدمه تشارلز ديكنز من روايات، ومن منا لم يقرأ الرواية الروسية على أيدي ديوستوفكسي وتولستوي وغوركي وغيرهم، ومن منا لم يتأثر عندما قرأ البؤساء لفكتور هيغو، ومن منا لم يندهش لمسرحيات شكسبير مثل هاملت والملك لير وغيرهما؟ فإذا كان الأدب الأوربي حاضراً في حياتنا الثقافية فأين الأدب العربي في حياة الغربيين؟

إن المهم في حوار الثقافات أن يكون هناك قواسم مشتركة في القيم الثقافية أدبية كانت أو فكرية، وهذه القواسم لا بد أن تستند إلى قيم إنسانية مطلقة لا تفسر حسب الهوى القومي، أو حسب الحس الفوقي الذي يقزم الآخرين، وينظر لهم نظرة دونية، إن كان على مستوى تفكيرهم، أو على مستوى إبداعهم الأدبي والفني، وبعد كل هذا وذاك فإن حوار الثقافات على الرغم من آفاقه الشائكة وتعقيداته

الشكلية والمعنوية نرى فيه طريقاً استيراتيجياً للتفاهم الإنساني، وليس موسماً يترافق مع الأزمات، وقد بدا أنه كلما اشتدت الأزمات بين الغرب والشرق وحدثت مواجهات وحروب خرج لنا بعض المتقوّلين الغربيين بقصة حوار الحضارات، أو حوار الثقافات، وكذلك حوار الأديان.

وكأن ما يفرض الغرب من حروب وأزمات يستلزم حملة إعلامية واسعة شعارها الحوار بين الشرق والغرب، وكأن الحوار لا يصلح إلا بعد الأزمات والحروب، ولو كان الغرب يرى جدوى حقيقية للحوار بين الثقافات لما ربط هذا الحوار بالأزمات، ولكان موضوع الحوار ذاته في أولياته ومقاصده الإنسانية العالمية.

على أية حال فنحن ـ العرب والمسلمين ـ نؤمن بالحوار مع أبناء الإنسانية كلهم من منطلق تعلمناه من قيمنا العقيدية أولاً، والحضارية ثانياً، ولم نكن يوماً منغلقين بل إننا قد نبالغ في الدفاع عن الحوار استناداً إلى منظور قرآني إنساني يقول تعالى فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ولعل معنى التعارف هنا لا يحتمل العداء والفوقية، ولا يستغل الضعيف ويشد أزر القوي والظالم.

ولعلنا هنا نتسائل لماذا يُقبل الشعب الأميركي على اقتناء نسخ من القرآن الكريم وكتب تتحدث عن الأمة العربية والإسلام، أليس ذلك دليلاً على أن هذا الشعب يجهل الكثير عن عقيدتنا وقيمنا وحضارتنا وتراثنا، وهذا ما كنا نقصده بالتعارف بين الشعوب، فإذا أدرك الشعب الأمريكي بفهم واع معاني الإسلام وحضارة العرب والمسلمين لا بد من أن يتخطى ردة الفعل النفسية الآنيّة، ولا بد من أن ينتقل إلى ممارسة حوار بناء مع الشرق العربي الإسلامي، وليس الشعب الأمريكي وحده القادر على فعلٍ حواريٍ إيجابي، بل إن الشعوب الجاهلة بحضارتنا وعقيدتنا وتراثنا سوف ترى أن حضارة الشرق ودين الشرق هي حضارة إنسانية داعية إلى حوار الشعوب والثقافات، وعقائد متسامحة تنكر الاستعلاء والفوقية والعدوان والحقد وتقزيم الآخرين.

وقفة أخرى عند هوية أخرى

من معوقات الحوار

طرحنا قبل صفحات قليلة مفهوم الهوية، وبيّنّا أن الهوية العربية الإسلامية هي هوية عقيدة وحضارة منفتحة وليست منغلقة.

وهذه الوقفة الأخرى تتعلق بالانجلو ساكسونية التي تمثلها الولايات المتحدة وبريطانيا والشعوب التي تنتمي إلى هذه الثقافة، فمتى نعود لفتح ملف الحوار الحضاري أو الصدام لا بد لنا من التعرف على الهوية الأخرى المقابلة، وهذه الهوية هي الأكثر بروزاً في هذا الوقت بالذات، ولعل السبب يكمن في أن أمريكا وبريطانيا تقودان حملة الحرب على الإسلام والعرب، وفي نفس الوقت تخرج من قلبها صرخات المفكرين والسياسيين الداعية إلى الصدام أو الحوار.

والواقع أن بعض القارئين والدارسين يُرجع تفرد الولايات المتحدة الأمريكية باتخاذ القرارات المرتبطة بالأزمات والمشاكل الدولية العالمية إلى كون هذه الدولة تمتلك أكبر ترسانة من الأسلحة التقليدية وغير التقليدية، أو إلى كونها تمتلك القدرة على السيطرة على اقتصاد قوي ومؤثر في كافة اقتصاديات دول العالم، وقد يُرجع بعضهم ذلك إلى العاملين السابقين، إضافة لعوامل كثيرة تندرج فيهما أو تدور حول محوريهما.

لكن ما يظهر من عوامل هو غير ما يستتر، وما نراه ونحلله بشكله العسكري والاقتصادي هو غير ما نراه عبر تاريخ هذه الدولة الذي لا يتجاوز الأربعمائة عام فقط، وهو غير ما نجده من الأسس الفكرية العقدية.

فالولايات المتحدة تشكلت بعد اكتشافها من عناصر أنجلو ساكسونية كان الغالب عليها العنصر الإنجليزي الأبيض الذي يشمل الإنجليز واليهود الغربيين.

وعندما بدأت حملات الإبادة بحق السكان الأصليين من الهنود الحمر شاركت فيها العناصر الإنجليزية والفرنسية والغربية بشكل عام، وكما هو معروف فإن الإسبان والبرتغاليين شكلوا قاعدة أخرى للتوسع والإبادة في ما يسمى أميركا اللاتينية.

وإذا تناولنا بالفحص التاريخي عناصر الموجودات الأولى التي احتلت الأرض الهندية وجدناها تتراوح بين الإنجليز والفرنسيين والهولنديين والطليان، ورافقت

حملات الإبادة خطوات أخرى لا تقل خطورة وهي حملات الاسترقاق في أفريقيا، والتي كان أهم تجارها هؤلاء الغربيين من بروتستانت ويهود، وجميع الوثائق التاريخية تشير إلى ذلك دون مواربة أو تعصب أو اتهام، راحت الولايات المتحدة تتشكل حتى جرت أحداث الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب، وانجلت عن تشكيل ما يسمى الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ انتصار الحلفاء على ألمانيا ودول المحور في الحرب العالمية الثانية بدأت تبرز الولايات المتحدة كدولة عظمى لا ينافسها سوى الاتحاد السوفياتي السابق.

ومع انهيار الشيوعية أصبحت هذه الولايات المتحدة القطب الأقوى في العالم، أما بريطانيا وفرنسا وكافة الإمبراطوريات الاستعمارية الحديثة فقد أصبحت تابعة تدور في فلك أمريكا في المجالات السياسية والعسكرية وغيرها.

وعلى مدى العقود القليلة الماضية أصبح صوت الولايات المتحدة هو المسموع وحده، سواء كان ذلك على مستوى منظمة الأمم المتحدة، أو منظمة التجارة العالمية، أو على مستوى إقليمي في كافة أقطار الدنيا، وبات من الواضح أن أي معارض لسياسة هذه الولايات يحشر في الزاوية ويتهم بألف اتهام واتهام، ويضرب في عقر داره.

كل هذه الحيثيات الواقعية التي نلمسها ونعيش رؤيتها، وسماع أصواتها تعيد لنا النظر في ما يكمن وراءها، وتعيد إلى أذهاننا عدة أسئلة وأجوبة نستطيع من خلالها أن ندرس الشخصية الأمريكية المعاصرة، وندرس المركّبات الفكرية والنفسية والعقدية التي صنعتها.

الأساس العقدي للفكر الأميركي

لو نظرنا إلى خارطة التوزع الديني المذهبي في الولايات المتحدة نجد أن البروتستانت هم القوة الأكبر والأكثر عدداً، وهم بشكل عام المهيمنون على قطاعات السياسة والحكم والاقتصاد والفكر الديني.

والبروتستانتية الأمريكية بمجملها تميل إلى أفكار جون كالفن الداعية الفرنسي البروتستانتي الذي طور ما جاء به مارتن لوثر متوافقاً مع موجة التوجه الاستعماري

الإحلالي في أمريكا، وقد قدم كالفن رؤية متكاملة للعقلية الغربية المتمردة على تعاليم المسيحية الكاثوليكية البابوية، لكنه تجاوز هذا التمرد ليضع أسساً عنصرية دينية يرى من خلالها أن العرق الأبيض هو أسمى عروق العالم، وأن البروتستانت أسمى المذاهب المسيحية، بل إنه أسمى الأديان كلها، وقد فسر كالفن الاسترقاق بأنه قدر إلهي، وعلى العبيد المسترقين القبول بهذا القدر.

ولما كان كالفن على صلة وثيقة بالتفسير الحرفي للتوراة فقد تبنى فكرة شعب الله المختار، لكنه جعلها خاصة بالعرق الأبيض والبروتستانتي تحديداً، إضافة إلى إيمانه بما يسمى شعب الله المختار اليهودي، وقد تبنى دعوته معظم القادة والمفكرين الذين بدؤوا حملتهم في أمريكا، وراحوا حسب زعمهم يطرحونها عرقياً على أهلها من الهنود الحمر، وظلت الأفكار الكالفنية ترتقي في الشخصية الأمريكية حتى أصبحت جزءاً من نسيجها العقلي والنفسي، وإذا تفحصنا الواقع الاجتماعي والسياسي الأمريكي المعاصر نرى أن هذا العامل لا يزال يتجسد بكثير من الأشكال.

فعلى سبيل المثال لا يجوز أن يترأس الولايات المتحدة سوى أمريكي أبيض بروتستانتي، وفي تاريخ أمريكا كله لم تشذ هذه القاعدة سوى مرة واحدة عندما أصبح جون كيندي رئيساً وهو كاثوليكي، ولا ندري إن كان مقتله نتيجة طبيعية للفكر البروتستانتي المتعصب والمتعاون مع أوساط صهيونية مشبوهة.

إن العرف الأمريكي الذي أصبح قانوناً غير مكتوب في لوائح الانتخابات الأمريكية هو الذي يسود العقل الأميركي، وكذلك المجتمع.

وعند النقطة الأساسية التي رسخها كالفن وهي أفضلية العرق الأبيض وتحديداً ذي المذهب البروتستانتي، توقف الفكر الأمريكي عن فهم أي فكر مغاير، وهذا ما جعله يظن نفسه على أنه محور البشرية باعتباره شعب الله المختار، ولهذه المحورية آفاقها من الشعور المطلق بالأفضلية والهيمنة والسيطرة والسيادة أو التسيّد، ولكي نفهم ذلك تماماً علينا أن نتذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية تنظر إلى نفسها وكأنها إله مطلق، يجب ألا يُعارض في ما يقول أو فيما يفعل، وعلى الآخرين أن ينصاعوا

له إن كانوا راضين أو غير راضين، ولعل ذلك يتجسد عندما تقول أمريكا من لم يكن معنا فهو ضدنا، ولا توجد مساحة وسطى بين مع وضد إن صح التعبير.

ولهذا أيضاً ينظر قادة الولايات المتحدة للمجتمعات الأخرى نظرة دونية، وليس له أي اعتبار، وهذا ما ينطبق أيضاً على الهيئات الدولية كمنظمة الأمم المتحدة ومجلس أمنها، وقد أشار إلى ذلك فيما مضى الرئيس نكسون في كتابه العاشر تحت عنوان "ما وراء السلام" بقوله: إن علينا أن نطوّع الأمم المتحدة لدعم سياستنا، لا أن تكون مسؤولة عنها، وهي غير مقبولة تماماً فكرة أن تضع الولايات المتحدة جنودها تحت قيادة الأمم المتحدة لتمنح الأمن الجماعي فرصة العمل، فإن تعمل رئيساً إنما يعني أن تقبل تحمل المسؤولية المطلقة في حماية أرواح الجند، وسيكون من غير الحكمة بل من غير الأخلاق أن تسلم أرواح الجنود الأمريكان إلى أيادي البيروقراطية الدولية التي تنتجها الأمم المتحدة، إن الأمين العام للأمم المتحدة لم ينتخبه الشعب الأمريكي.

وفي السياق الأعمق فإن مكونات الشخصية الأمريكية الفكرية تستند في جانبها العقيدي استناداً قوياً إلى الدمج بين الرؤية البيوريتانية البروتستانتية والرؤية اليهودية قبل أن تتشكل الفكرة الصهيونية اليهودية ذاتها.

فمنذ ما قبل منتصف القرن السابع عشر ترسخ لدى المستوطنين الأمريكيين نموذج روحي لما يسمى العهد القديم العبري، وقد أطلق المهاجرون الأوائل إلى أمريكا على أنفسهم أطفال (إسرائيل) في طريقهم إلى الأرض الموعودة، واحتفلوا بيوم السبت كيوم راحة لهم، وكانت إحدى طوائف البروتستانت وتسمى (المورمونية) قد استقرت في ولاية (يلوتاه) وتدعي أنها تاهت في الصحراء الأمريكية العظيمة مثلما تاه اليهود في صحراء سيناء، واستقرت أخيراً في الأرض الموعودة في ولاية يوتاه، وغيرت اسم نهر كولورا إلى نهر باشان الموجود ذكره في التوراة.

وكانت مطاردة مهاجري أوروبا للهنود الحمر في العالم الجديد مشابهة لما جاءت به التوراة في مطاردة العبرانيين المزعومة للقدماء من الكنعانيين، وقد خلق التشابه في هذه التجربة قناعة بل فلسفة ووجداناً متشابهاً ومشتركاً بين الكيان الصهيوني والولايات المتحدة في العصر الحديث.

فالذين هاجروا إلى هذه البلاد في القرنين السابع عشر والثامن عشر أبادوا معظم سكانها الأصليين من الهنود الحمر واستوطنوا مكانهم، والذين هاجروا من الصهاينة إلى فلسطين يتبعون كافة الأساليب لتشريد سكانها أو إبادتهم.

هل هناك أساس أخلاقي للفكر الأمريكي؟

قد يقترب الأساس العقدي من الأساس الأخلاقي في بناء الفكر المعاصر في أمريكا، ولكن ما يظهر في المجتمع الأمريكي من الخرافات ليس مرده إلى أساس عقدي بقدر ما مرده إلى أساس أخلاقي.

فعلى الرغم من تسيّد الولايات المتحدة اقتصادياً وعسكرياً إلا أنها من أكثر الدول افتقاراً للأخلاق، والتعليم.

يقول الرئيس السابق نيكسون: (لقد خاب أمل الداعين إلى سياسة النوايا، وأصابهم الإحباط من تفشي الأمية، وتلاشي الأخلاق الحميدة، والافتقار إلى أي عمق للحياة في أمريكا، وصدقوا حين اعتقدوا بأن جزءاً من المشكلة يكمن في الفلسفات المغرقة في المادية التي تتجاهل البعد الروحي للإنسان) وقد عملت ثقافة الستينات المضادة على خلق فراغ معنوي وروحي أضعف ركائز المجتمع الأمريكي، فقد ازدرت نخبته قيم الفضيلة التقليدية، وقد عاثت الثورة الجنسية عبثاً في المجتمع الأمريكي بارتفاع معدلات الطلاق، وتزايد المواليد غير الشرعيين، وتكاثرت العائلات ذات الأب الواحد، كما أفضى تمجيد تعاطي المخدرات والتي لم تكف الطبقة الوسطى عنها إلى المساعدة على ظهور طبقة متحضرة معدمة بصورة دائمة.

ويتابع نيكسون قوله: (إن سواد الأمريكان نزيهون ووطنيون ومغامرون لدرجة بعيدة، بيد أن النخبة الليبرالية تواصل التأثير على السياسة العامة، والسبب الرئيسي يعود حقيقة إلى أن الشعب الأمريكي جد مكترث لوجهات نظره فيما لم يعرض أصحاب الأفكار الأخرى استجابة صريحة أو ملزمة لحد مقنع، وليس بوسع الأمة السليمة أن تتحمل تناقضاً كهذا حاداً بين تطبيل النخبة وتفكير الشعب.

ولعل ما نلمسه عن كثب في المجتمع الأمريكي أن أفكار الميكافيلية انتشرت بشكل مريع في الفكر الأمريكي وسلوك الأمريكيين، وهي في بادئ أمرها لم تكن غائبة.

لكن انتشارها كفلسفة عامة للأمريكيين ظهر بهذا الاتساع والشمولية مع تنامي القوة الأمريكية، وتدخلها في شؤون الشعوب الخاصة، وطغت بشكل مريع مع انهيار الشيوعية وتفرُّد الولايات المتحدة الأمريكية اقتصادياً وعسكرياً.

لقد حاول الفكر الأمريكي متمثلاً بزعماء البيت الأبيض ومستشاريه أن يُقنع نفسه ويُقنع الأمريكيين أن تسيّد الولايات المتحدة وتفردها ليس نابعاً من قوتها العسكرية والاقتصادية، إنما يعود إلى رضا الله عن أمريكا التي احتضنت شعب الله المختار، ودافعت عن الصهيونية دفاعاً مستميتاً على حد تعبير جيري فولويل القس البروتستانتي المعروف بشكل واسع في أمريكا وهو من زعماء دعاة الصهيونية غير اليهودية.

على أية حال فإن تجربة ما حدث بعد الحادي عشر من أيلول / سبتمبر عام 2001 لن تغيّر شيئاً من النظرة الأمريكية للعالم ولنفسها، لأن أمريكا أصبحت لا ترى إلا بعين واحدة، ولا تسمع إلا بأذن واحدة، وما عدا ذلك فإنه لا يُسمع ولا يُرى.

ولعل كل ذلك يقول لنا: إن الهوية الأمريكية التي تطفو على السطح هي هوية الأمريكي المتسلح عسكرياً واقتصادياً، أما أين هو الأمريكي صاحب الهوية الحضارية المؤهلة للحوار بين الحضارات والثقافات؟ فإن الجواب يقول لنا: إنه ليس موجوداً.

إذن كيف يتم الحوار؟ ومع من طالما أن التشكل الفكري والتكنولوجي الأمريكي لم يقترب من البناء الحضاري، ولم يرسخ القيم الفكرية الإنسانية وما إليها.

لقد برز لنا مما تقدم مفهوم الهوية بالنسبة لنا كعرب ومسلمين وبالنسبة للصهيونية والكيان الصهيوني، وتوقفنا عند الأنجلو ساكسونية باعتبارها هوية أخرى من الهويات التي يمكن أن تتصادم أو تتحاور، ونرى أن البحث في أسس الهوية الأنجلو ساكسونية يجرنا إلى موضوعات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بها.

ونعتقد أن حوار الحضارات أو صدامها هو في أحد وجوهه صدام هويات، أو حوار هويات، فالهوية قد تكون أسسها فكرية عقيدية حضارية ممتدة عبر الزمن والجغرافيا، وقد تكون الهوية مؤسسة على القوة العسكرية وفكرة التفوق العرقي، أو السيطرة الاقتصادية، ومن هنا لا بد أن نطرح في هذا الإطار سؤالاً مشروعاً يقول:

هل تصنع القوة حضارة؟ وبصيغة أخرى هل من يمتلك القوة العسكرية المتفوقة قادر على صنع حضارة تتمثلها الإنسانية أو تحتذي نموذجها؟

القوة والحضارة

قد يفهم أن المقصود جدلية القوة والحضارة، لكن الذي نريد قوله سؤال يطرحه الوعي العقلي الذي ما وصل إلى ما وصل إليه إلا بعد تراكمات فكرية قد لا ندري كم هو الزمن الذي استغرقته حتى انفجرت بنا في هذا الزمن.

كيف نفهم الحضارة في هذا الإطار؟ كيف نفهم العلاقة بين القوة العسكرية التكنولوجية وبين الحضارة؟ وهل القوة كفيلة بأن تصنع حضارة إنسانية؟ وهل السيف المسلط على رقاب البشر يضمن أن يمتثلوا لخط حضاري ويسيروا في سياقه وبنائه المادي والمعنوي؟

قيل على لسان بعض المستشرقين المغرضين: إن العرب فرضوا إسلامهم وحضارتهم بحد السيف، وحين ننظر بشمولية وعمق إلى التاريخ الإنساني نرى أن العرب استطاعوا من خلال إسلامهم أن يبنوا حضارة إنسانية لكل من اعتنقوا عقيدتهم، فخرج من قلب هذه الحضارة علماء وفلاسفة اختلفت أصولهم العرقية وتوحدت حضارتهم لتكون أول حضارة إنسانية أذابت كل العناصر في وحدة حضارية واحدة قدمت للإنسانية الفلسفة والرياضيات والبصريات وعشرات العلوم التي لا ينكر أحد آثارها في بناء العقلية الإنسانية وتطورها.

وإذا كان بعض المستشرقين قد انطلق في أحكامه من موقف سلفي مسبق، وحكموا على حضارة المسلمين بأنها قامت بحد السيف فمن المفترض أن يتساءلوا لماذا بقي الملايين من الباكستانيين والأندونيسيين وأبناء القوميات الأخرى يتمسكون بحضارة الإسلام ويدافعون عن قيمها؟ أليس الأحرى أن ينقلبوا إلى حضارات محلية خاصة بهم بمجرد انفكاك الإمبراطورية الإسلامية وانقسام أقاليمها، أو تقسيمها، فإذا كانت الحضارة العربية والإسلامية قد فرضت بالقوة على تلك الشعوب فإن هذه الشعوب لن ترضى أن تبقى رهينة الضغط الحضاري المُرافَق بقوة السيف، وكل شعب لا بد أن يبحث عن هويته الحضارية البعيدة عن القمع والجبر.

والواقع إن نظرية هؤلاء المستشرقين تسقط كما سقطت جميع النظريات التاريخية الاجتماعية التي تنطلق من موقف تعصبي حاد لا همّ له سوى تشويه الحضارة العربية الإسلامية، ومحاولة تحطيم كل قيمها وآثارها، ونكران فضلها على الإنسانية، وإذا كان هذا الطرف من المستشرقين قد غاظهم أن يروا الحضارة العربية الإسلامية تُذكر بكل خير، فإن طرفاً آخر من المستشرقين دافعوا عن حضارة العرب وبيّنوا آثارها الإيجابية، ورفضوا رفضاً قاطعاً مقولة إن الحضارة العربية الإسلامية بُنيت بالقوة، ولا بد أن نستذكر ما قالته المستشرقة الألمانية زيغردهونكه في كتابها شمس العرب تسطع على أوربا.

لعل ما قلناه في السطور الماضية ليس سوى تمهيد للفكرة المقصودة، وهي التي طرحناها من خلال أسئلة كثيرة نجملها في سؤال واحد يقول: هل القوة العسكرية والتكنولوجية قادرة على أن تصنع حضارة واحدة لكل أبناء البشرية؟

القوة لن تصنع حضارة بل في أكثر الأحيان الحضارة تصنع قوة، ألم تكن الحضارة اليونانية بفلسفتها وأساطيرها وتعدد عقائدها قد صنعت قوة عسكرية تمددت كثيراً ودامت طويلاً؟ وكذا الحضارة الرومانية، ألم تصنع من خلال أبنيتها الشامخة وحصونها وفلسفتها وعقائدها قوة استطاعت أن تتمدد بعيداً؟

لكن الفرق ـ كما يقول المستشرقون والباحثون والعلماء المنصفون ـ إن الحضارة اليونانية عندما أصبحت خاضعة للقوة المسلحة انطلقت لتغزو العالم، وتضطهد الشعوب، وتحتل أراضيها، وكذلك الحضارة الرومانية عندما سيطر مفهوم القوة المسلحة عليها راحت تضرب شمالاً وجنوباً، وتحتل هنا وهناك، فبدل أن تكون حضارة تساوي بين الشعوب أصبحت قوة تستعبد الشعوب، وتصنع طبقات في المجتمع، وما خلفته الحضارتان المذكورتان في بلاد الشرق لم يكن سوى استعباد واسترقاق لشعوب المنطقة لأن الحضارة أصبحت مرهونة للقوة، والقوة الظالمة أصبحت وسيلة وغاية في آن واحد، ولذلك وعلى الرغم من بقاء الرومان في بلاد الشام ومصر وساحل المتوسط الشرقي قرابة ستة قرون فإنها كقيم وأفكار وعقائد وحتى كسلوك ذابت تماماً ولم يبق منها سوى الأثر المادي في بعض القلاع والقنوات والأسوار.

وهنا يكمن الفرق بين حضارة وحضارة، حضارة تنقلب إلى قوة جبروتية ترفضها روح الشعوب، وحضارة تفتح آفاقها لكل إنسان كي يكون له دور فعال في بناء الفكر والفلسفة والعقيدة والسلوك، حضارة لا تنقلب إلى جبروت وظلم، وحضارة تقوم على التفاعل والحوار، ثم تقوم على الاندماج كي يقدم كل من فيها خبرته ودوره في تقدم حضارته الشمولية المتكاملة، وهنا يكمن سر الأثر الباقي، فالحضارة العربية الإسلامية ما تزال تتفتق أفكار أبنائها في مشرق الأرض ومغربها دون أي اعتبار للعنصر أو العرق، ولنا أن نذكر هنا أن هذه الأمة لا تنظر إلى ابن سينا أو الفارابي أو محمد إقبال أو غيرهم سوى نظرة واحدة تراهم جميعاً بناةً للحضارة العربية الإسلامية دون أي اعتبار آخر.

وإذا تجاوزنا قراءة التاريخ وقفزنا نحو عصرنا الحديث أو الحالي فإننا سنحاول أن نبقى في إطار التنظير أو التفلسف حتى لا نتجنى أو نُتهم بالانحياز هنا أو هناك.

هل بالقوة المسلحة تُصنع حضارة جديدة تعم الكرة الأرضية؟

من الطبيعي أن لا يختلف اثنان حول الجواب، لكنّ المسألة تحتاج منا لوقفة واعية حتى ندرك المدى التنظيري أو التفلسفي لتلك المقولة.

من الطبيعي أن فرض الحضارة عن طريق القوة سيجعل بني البشرية كارهين لهذه الحضارة، رافضين لكل تجلياتها، فما بالنا إذا كانت هذه الحضارة ليست سوى تكنولوجيا تفتقد للروح؟ ما بالنا إذا كانت هذه الحضارة ليست سوى إفرازات لعقد نفسية جنسية تسيطر عليها روح السادية والجبروت والفوقية والعنصرية؟

إن طبيعة البشر كبشر عاقلين ترفض أن تُسلب قيمهم وأفكارهم المستقيمة لصالح أفكار شاذة وقيم لا تفهم سوى مصلحة الذات والأنا الأعلى المتعالي والمستكبر.

ولذلك فإن أي قوة تدعي أنها تريد بناء الحضارة الإنسانية هي خادعة كاذبة لأنه ليس بالسيف تصنع الحضارات، وكيف يُطلب من إنسان أن يأخذ دوره في بناء الحضارة وهو معرض للخوف والبطش والرعب بل هو معرض للقتل إن هو أبدى ملاحظة ما حول أسلوب البناء الحضاري المعاصر؟

إن التطور الذي شهده العقل البشري علّمه أن القوة مهما بلغت من عظمة وسيطرة لن تكون خالدة، وطبيعة الجدل التاريخي تعلمنا أن طبيعة الأشياء تحوي في داخلها النقيض، فالقوة مهما بلغت من جبروت لا بد أن يفتك بها الضعف من داخلها ومن قال إن القوة البشرية خالدة ومطلقة؟ لا خلود لشيء ولا مطلق في الحياة المادية، كل شيء نسبي في عالم المحسوسات مهما تصور العقل عظمته وجبروته.

إن الذين يسيطرون على القوة ويحركونها ليسوا سوى مخلوقات متحركة متنقلة فمن يقود القوة اليوم قد لا يقودها غداً، ومن الطبيعي أن كل تجليات السياسة وتحركاتها ليس لها علاقة ببناء الحضارة الإنسانية، والذين يظنون أن العالم سينقاد لنموذج فكري ثقافي واحد هم واهمون، ويقعون تحت سيطرة عقدة الوهم، أو مرض العظمة الذي لا يرى في الوجود سوى صاحبها وكل ما عداه ليس إلا حشرات يفتك ببعضها متى شاء ويدجّن بعضها متى أراد.

هل كان يصدق يوليوس قيصر أن الإمبراطورية الرومانية ستزول وتندثر؟ هل كان الإسكندر المقدوني يتصور أنه سيموت في عز شبابه وتسقط أحلامه تحت التراب مع جثته المتفسخة، الإسكندر الذي دوّخ العالم في عصره، ودانت له أكثر شعوب عصره ينفجر دماغه تحت وطأة العظمة والجبروت فيخلف وراءه ما خلف، فماذا بقي من يوليوس والإسكندر؟

إن الحضارة الخالدة هي حضارة القيم، التي تحترم الإنسان لأنه إنسان، تحترم التنوع الفكري والحوار البشري، ولذلك تدوم القيم ويبقى في الوجود من يدافع لأجلها، إن من يظنون أن القوة هي وسيلة نشر الثقافات والأفكار يدركون أن هناك حاجزاً بينهم وبين غيرهم من أبناء البشرية، وهذا الحاجز ليس وهماً أو كرهاً مصطنعاً، إنه بالمحصلة كره حقيقي، وهنا يكمن سر فشل القوة مهما بلغت مستوياتها ومهما عظم جبروتها، وحين يتساءل أصحاب القوة لماذا نحن مكروهون من قبل الشعوب؟ يدركون أن ما يزعمونه من أسس حضارية معاصرة ليس سوى استعباد نفسي أو فكري أو نمط معيشي وسلوكي، إن جنون العظمة ناتج عن جنون القوة، والقوة كما هي معروفة سلاح ذو حدين، ويبدو أن التاريخ القديم الذي جئنا على

ذكر بعض أصحابه وكذلك التاريخ الحديث أثبت أن جنون القوة يحمل في داخله ضعفَه ومقتَله، وهذا ما لم يتعلمه الجبارون من التاريخ ودروسه وعبره.

فلماذا لا يتعلمون من دروس التاريخ؟ الحقيقة تقول: إن الأمراض النفسية هي الأكثر فتكاً في من يتلبسهم جنون العظمة، وكم عمل التحليل النفسي عمله في الكشف عن خبايا الكثيرين من الزعماء والقادة الذين ما زالت الأمم تلهج بأسمائهم وأفعالهم، ولنا أن نتذكر نابليون أو جنكيزخان أو هتلر أو موسليني أو غيرهم.

والواقع أن التاريخ برمته يشهد شهادة صدق على هؤلاء وأمثالهم، فهم يقعون فريسة وَهْمِ القوة وفعلها الإرهابي التدميري، وفي هذه الحال فإن بصيرتهم لا تختلف عن بصرهم، بصرُهم لا يرى مركزاً كونياً سوى الذات، وبصيرتهم لا تحلم إلا بالأنا الفوقي ودونية الآخرين.

من يضمن أن تكون القوة القاهرة وسيلة لبناء حضارة عصرية؟ لا أحد . . لأن في ذلك خللاً في الطرح، وخللاً في المفهوم، وخللاً في طبيعة العلاقة بين المفهوم ذاته وبين المتلقي.

ولهذا كله كان علينا أن نطرح مفهومي القوة والحضارة في عنوان مثير للنفس مثير للتساؤل والاندهاش.

إن القوة القاهرة لن تكون سوى تدمير لقيم الحضارة الإنسانية، وإن الحضارة ذات البعد الإنساني تحتاج فقط لفهم بسيط غير معقد يساوي بين أبناء الجنس البشري في الحقوق والواجبات وسبل الحياة الكريمة، دون إكراه على اعتناق دين، ودون قهر لتبني فكرة، ودون ضغط لفرض سلوك أخلاقي أو تربوي أو ثقافي.

كيف نتعامل مع التاريخ ونحن نطرح مفهوم الحوار؟

إذا بقينا مأسورين للتاريخ لن نحقق حواراً بين الحضارات!

هكذا يطرح الغرب مفهومه حول حوار الحضارات.

وفي الواقع فإن مسألة التعامل مع التاريخ في إطار حوار الحضارات تثير لدينا جانبين هامين:

الجانب الأول: يرتبط بتدوين التاريخ، وكيفية كتابته.

والجانب الثاني: يرتبط بحذف جوانب من وقائع التاريخ.

وكلاهما لا ينفصلان... إنما يكملان بعضهما بعضاً خاصة في إطار طرح مفهوم حوار الحضارات.

ففي الجانب الأول: لا بد أن نشير هنا إلى أن التاريخ يشكو من التأريخ، لماذا... لأن الذين يكتبون عن العروبة والإسلام والحضارة العربية الإسلامية ليسوا عرباً، وليسوا ممن ينتمون إلى الجغرافية العربية والتاريخ العربي والحضارة العربية الإسلامية.

قد يبدو أن المسألة لا تخص الحوار ومفهومه، ولكننا نرى أن البدء بأي حوار لا بد له من أسس يستند عليها، ونعتقد أن تدوين تاريخنا بأيدينا يسمح لنا أن نبادر إلى أي حوار مستندين إلى إيمان وقناعة بأننا نمتلك معطيات التاريخ صحيحةً نقيةً من الشوائب.

والواقع أنه كثيراً ما يتردد في أوساطنا الثقافية أننا بحاجة ماسة لإعادة تدوين تاريخنا، وتحليل مظاهره وتجلياته وأحداثه وشخصياته، وقد بات هذا القول حديثاً على كل لسان، ومعاناةً في كل عقل.

وينقسم المتشددون بين متشدد متحمس، وبين مستسلم قابل، لنرفض كل ما وصلنا عن طريق المستشرقين والمؤرخين الغربيين، أو لنقبل بما وصلنا منهم لأنهم الأكثر موضوعيةً، وهنا ينقسم الوجه الفكري العربي إلى قسمين، أو لنقل إن انقساماً ما يحدث بين من يدعو لتأصيل الوجه العربي الإسلامي والعودة إلى الذات لتعيد إنتاج نفسها وتاريخها، وبين من يدعو للاندماج بما يُسمى العولمة وتناسي الماضي، والانطلاق إلى حاضر أو مستقبل أكثر انفتاحاً وأكثر اندماجاً بالفكر الغربي والثقافة الغربية، عدا الاندماج بالغرب الاقتصادي أو التكنولوجي.

من يدون التاريخ؟ لمن يكتب التاريخ؟ وعشرات الأسئلة الأخرى يطرحها علينا الزمن العربي الإسلامي ونحن نواجه مزيداً من الاستلاب، ومزيداً من الضغط السياسي والفكري والنفسي والاقتصادي والثقافي، ومنذ عشرات السنين والأمة

تحاول أن تصحو وتؤسس لمنهج جديد لحياتها يحافظ على تواصلها مع عقيدتها وتاريخها وتراثها، يحافظ على الهوية والشخصية وتحصينها.

وما تزال الهجمات الغربية والصهيونية والعنصرية تجند جنودها العلنيين والمتسترين لتخريب الأمة في أرضها وعقلها ووجدانها.

وكلما بدأ يتحرك جسد الأمة لأجل النهوض ضربوه على رأسه ضربة دامية كي يعود إلى سكره وغيبوبته، ويدركون أن هذه الأمة إن نهضت واستوت على قدميها واقفة فلن يكون لهم نصيب من النهب والاحتيال والاستلاب، ولن يكون لهم حظ من تهديد أمن الأمة ومقدراتها وأراضيها، وعندها لن يكون لهم تفرد وسيطرة وعولمة، وستجد الأمة أن عشرات السنين من التضييع والإذلال باتت ذكريات أليمة لا تمحى من صفحات التاريخ المعاصر.

لكن النهوض من جديد يعني إزالة كل الآثار الثقافية المدمرة والسلبية، وآثار الغزو الغربي الصهيوني التغريبي كله.

ونعتقد أن بدء إعادة تكوين أو ترميم الشخصية العربية الإسلامية لن يتم إلا إذا وضع كل أبناء الأمة كل ما دون في التاريخ القديم والحديث أمام المجهر لتعاد صياغته من جديد، ويهذب من كل أنواع الدس والتخريب، وتحت المجهر تُقرأ السطور والقصص والحوادث، وتقيّم الشخصيات تقييماً موضوعياً صحيحاً بعيداً عما لفّقه الغربيون وصنعوه بدافع الهوى والعنصرية.

وعندما يتساءل مثقفونا من يدوّن التاريخ؟ فإن الشكوك التي سيطرت على العقول حول مصداقية ما دوّن وما يدوّن تدفع الجميع لإعادة قراءة التاريخ وكتابته بما يتلاءم مع طبيعة الإنسان العربي والمسلم المنفتح والعقلاني والمبدئي، لا مع ما يراه الغرب بمنظاره، ولا ما تراه أقلام المستشرقين الذين ضربوا الكثير من ثقافة الأمة وفكرها حتى طالت أقلامهم المفاصل المهمة في تاريخ هذه الأمة وشخصيتها المتميزة عبر التاريخ.

من يدوّن تاريخ الأمة؟ وهل ما يزال أبناؤها جاهلين أميين حتى يبقى بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين واليهود يدونون تاريخها، أم أن في هذه الأمة من يقدر على غربلة التاريخ ويضع الأمور التاريخية في مكانها الحقيقي من التدوين.

كل أمة أعرف بحالها وبوقائعها وشخصياتها، ولن يتحسس هذه الأحوال والوقائع والشخصيات إلا من تسري في عروقه دماؤها وينتمي لها، يتحسس الأرض التي جرت فيها الأحداث، وتجول في طرقاتها الأشخاص وصنع وقائعها من نبت فيها، كما نبتت الأشجار المعمرة العصية على الرياح والعواصف والاقتلاع، ولعل ما يزيد البلاء بلاءً أن ما يدونه بعض المستشرقين لهذه الأمة لا يستند إلى حقائق تاريخية مستقيمة، فإما تلعب أقلامهم حسبما تمليه عليهم عنصريتهم وحقدهم المتأصل على هذه الأمة وحضارتها الإنسانية الإسلامية، وتراثها وأرضها الغنية الفتية، وإما ينشرون الأكاذيب على أنها حقائق صادقة ويرسمون ملامح الشخصيات رسماً فيه الألوان القاتمة السود أكثر بكثير مما فيه من الألوان المضيئة المشرقة، وتمضي تخيلاتهم المقصودة في كل مكان فيعود العقل العربي مصدوماً مشككاً في أمته وتاريخه، مشككاً بتلك الشخصيات التي جردت على مدى التاريخ الغربي من كل زيف وتلفيق ورفعت في وجه الزحف الاستعماري سيفاً لا يلين، وعلماً لا يسبقه علم، وتراثاً يملأ الدنيا تقدماً وازدهاراً ومعرفةً، ويمضون مشككين بتلك الشخصيات العربية الإسلامية التي حملت في قلوبها عقيدة رائعة صلبة، إنسانية التعامل، عالمية القبول وزرعتها في قلوب الأمم والشعوب من خلال المحبة وأخوّة الإنسان للإنسان.

لم يرق للمستشرقين أن يكون العرب في الصدارة التي يستحقونها، فأوغلوا صدور الجاهلين وضعاف النفوس بالحقد عليهم وعلى عقيدتهم وشخصياتهم، وبتنا نسمع من أبناء جلدتنا من يدافع عن وسائل التأريخ الغربية ونتائجها، وبتنا هنا نسمع عن دعوة لتقليد الغرب في كل شيء في الثقافة والعلم واللباس والمأكل، والعلاقات الاجتماعية حتى لو كانت علاقات غير شرعية وغير أخلاقية، وهذه الدعوة تسمي الفوضى حرية، وتسمي تمرد الأبناء على الآباء ديموقراطية، وتسمي اختلاط الجنسين اختلاطاً غير مشروع تقدماً ورقيّاً، لماذا لا نقبل ما يأتينا من المؤرخين الغربيين ونصدقهم، لماذا نقول عن مظهر الثقافة الغربية غزواً وتخريباً؟

هكذا يطرح المبهورون بالزيف الغربي فكرهم وثقافتهم إن كان لهم فكر، وإن كانت لهم ثقافة، ورداً على هذه الطروحات نرى أنه من هنا تبدأ إعادة النظر في تدوين

التاريخ، فهو يحتاج لمنهج عربي عقيدي صلب، يؤسس لفكر نهضوي سليم ومعافى، يبدأ بالإجابة على السؤال الذي يطرحه كل منا . . . من يدون التاريخ؟ ولمن يُكتب التاريخ؟ ويبدأ منطلقاً للإجابة على آلاف الأسئلة التي ترددها الأجيال العربية.

إن التأكيد على بناء الشخصية العربية الإسلامية ليس اعتداء على أحد، وليس عداء لأحد، فالغرب الذي ارتضى ثقافة خاصة وتراثاً خاصاً ليس من المفترض أن نتبنى ما ارتضاه، وكما هو يبني شخصيته على أسس تناسب تراثه وتاريخه الروماني اللاتيني، فلنا أيضاً طرقنا وأساليبنا في بناء شخصيتنا، وهذا البناء يبدأ بصياغة أسس جديدة لتدوين تاريخنا الحديث والمعاصر وثقافتنا العربية الإسلامية الخاصة بنا.

ومن هذا الأساس ننطلق في بناء شخصيتنا وعالمنا الحاضر والمستقبلي، فإذا استطعنا أن نرسخ في عقول أجيالنا عدم التبعية وعدم الذوبان في عالم الغرب استطعنا أن نوقف زحف العولمة التي تريد إلغاءنا وإلغاء عقائدنا وتراثنا وخصائصنا، واستطعنا أن نعيد الثقة لأبنائنا بتاريخ أمتنا وشخصيتنا النادرة الفذة في التاريخ.

ولعل تحقيق ما نصبو إليه سيكون مفتاحاً نفتح به كافة أبواب آمالنا وأهدافنا، وإذا ما اتحدت إراداتنا حول هذا التأسيس، أي: التخلص من الآثار السلبية للعولمة الغربية، نستطيع أن نبدأ الخطوات التالية في الدعوة إلى وحدة الأمة في مجال الثقافة الجامعة الكلية، وفي مجال الاقتصاد التكاملي المتين، وفي مجال السياسة الدولية القوية، وفي مجال توحيد أبناء الأمة باتجاه أهداف وحدوية إنسانية عالمية مستندة على عقيدة راسخة، وفي ظل ما يسمى القطب الواحد، وفي ظل ما يسمى بالعولمة، وفي ظل التمادي الصهيوني والعلو اليهودي وإفساده يدخل الغرب ما يسمى الألفية الثالثة وهو يضع أمامه أهدافاً استعمارية جديدة يريد تحقيقها بأي شكل، لكننا بتحقيق ما ذكرناه لن يستطيع هذا التمادي والعلو والإفساد أن يدمرنا أو ينتصر على قيمنا.

على أية حال، فإن ما نريد قوله ليس دعوة للتعصب والتحجر أو دعوة للعداء والتقوقع، إنما هي دعوة للذات، وتأكيد على الهوية الشخصية، ومواجهة الإلغاء والنفي.

فالتأريخ بما يخص الأمة من أحداث وشخصيات يعني الحفاظ على بقاء إنسان هذه المنطقة العربية بعد أن بدأ الآخرون بحملتهم الصهيونية لإفناء هذا الإنسان، واستلابه عقله ونفسه وروحانيته وتراثه وعقيدته الإنسانية العالمية.

ولو نظرنا إلى بعض الدعوات الغربية المعاصرة التي تخص تاريخ منطقتنا العربية وقفنا مدهوشين مستغربين أمامها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر تخرج دعوة تقول: مطلوب منكم أن تشطبوا من تاريخكم مائتي عام، وتنسوا كل الأحداث التي جرت خلالها، وهاتان المئتان من السنين تخص بدء الحملة الصليبية الأولى على الشرق في القرن العاشر وانتهاءها في الحملة التاسعة، عليكم أن تنسوا مجزرة القدس عندما دخلها الإفرنج وراح ضحيتها سبعون ألفاً من العرب، وعليكم أن تنسوا تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين، ثم تحرير بقية البقاع العربية من الغزو الإفرنجي، وعليكم أن تنسوا أن القدس عربية، وأن فلسطين عربية، وعندها يمكن أن تفتح صفحة جديدة من العلاقات الإنسانية بين الغرب والشرق.

هكذا تطرح بعض المقولات الغربية فهمها للتاريخ، وهكذا يطلب منا أن نلغي مائتي عام من تاريخ أمتنا، ننسف هذا التاريخ من الذاكرة تماماً، ومن الكتب أيضاً، ومن كل ما يذكّر بما حدث من أحداث مفصلية في تاريخ الأمة، إذا هي دعوة مبدئية، واللاحق أدهى وأمر وأخطر، والأخطر والأدهى بدأت طلائع حربه دساً وتسريباً.

ففي فرنسا ومن جهة غير معلومة نشرت على موقع ما على الإنترنيت سُوَرٌ سُمّيت بالسُّور القرآنية، وألفها أحد العنصريين ليشابه بينها وبين سور القرآن الكريم، ويطلق على الأولى منها سورة الإيمان، وعلى الثانية سورة التجسّد، وعلى الثالثة اسماً آخر، ويكيل الشتائم من خلالها لشخصية النبي محمد - ﷺ - والإسلام، وأمة العروبة والإسلام، فهذا هو الذي يريدونه منا نحن أبناء العروبة والإسلام.

أما لماذا يريدون ذلك، فلأن هذه الأمة التي منحت الإنسانية أبجدية اللغة وأسس الحضارة الإنسانية، وقيم الإسلام الخالدة، تستعصي على الإفناء مهما كثرت الحملات الاستعمارية، ومهما جند أعداء الأمة من جيوش إعلامية وتخريبية

وتدميرية وغير أخلاقية، ولأن هذه الأمة تتحضر دوماً للحفاظ على مكوناتها العقيدية والتاريخية، وتسعى دوماً للحفاظ على هويتها وتحصينها أمام هجمات التشويه التي لا تتوقف.

وأستحضر هنا ما قاله يوما الدكتور شاكر مصطفى وهو يتحدث عن ثمن الحضارة الغربية، وكيف لا يروق للغربيين أن نصحح التاريخ، أو نكتبه بأيدينا، يقول: ما زلت أذكر وأنا أناقش رسالتي للدكتوراه كيف احمرت آذان اثنين من أعضاء لجنة المناقشة وهما يرفضان أن أصف بالبربرية غزو الفرنجة للقدس، وذبحهم سبعين ألفاً فيها (إنه كلام غير علمي) كذلك قالا وقلت قبل أن أجيب: أود أن أسأل ماذا تسمون أنتم في كتبكم العلمية بل والمدرسية أيضاً فتح الهانز المغول وزعيمهم أتيلا لأوربا؟ والزحف الجرماني على الإمبراطورية الرومانية، وبماذا تصفون في كتب الصغار دخول العرب إلى إسبانيا ومعركة بواتييه؟ (بلاط الشهداء).

ومن هذه المصادر تعلمت الكلمة، أنتم في الغرب تعودتم زمناً طويلاً أن تكتبوا التاريخ وحدكم وأن يقرأ الآخرون... بعد الآن سوف يكتب الآخرون بدورهم التاريخ من وجهات نظرهم أيضاً، وعليكم أن تقرؤوا وجهاً في المرآة لما ترونه بعد، وسوف يحمل الآخرون هذه المرآة، عفن الماضي كله سوف يوضع ذات يوم قريب في سلالكم بدل الزهور).

إذن فليكن تاريخنا ملك تأريخنا، وليقم التاريخ الذي نسطره بأيدينا على قدميه، عندها لن يشكو التاريخ من التأريخ، ولن تبكي الهوية ملامحها التي حاولوا تشويهها، ولن تنهار الشخصية العربية الإسلامية أو تندحر؛ لأن قدرها أن تعيش رغم الطعنات والحصارات كلها، ورغم كل أشكال التزييف وتحوير التاريخ وخداع العقول والنفوس.

كيف يرى الغربيون التعامل مع التاريخ؟

على الغرب أن ينسى الغزو العربي الإسلامي لإسبانيا، وعلى العرب أن ينسوا الحملات الصليبية الإفرنجية على بلاد الشام والقدس ومصر.

الفتح العربي الإسلامي في إسبانيا يصبح غزواً يراه الغربيون شبيهاً بالغزو الإفرنجي للشام ومصر.

وأسر التاريخ يعني أن نظل محكومين للمعايير التي سببتها الحروب بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الاستعماري.

من هنا كان علينا أن نتوقف طويلاً عند هذه المفاهيم والمعايير، وكذلك عند مفهوم حوار الحضارات والثقافات، وحوار الأديان الذي بات يتردد كثيراً في أوساط وأوساط.

وبداية القول نرى أن طبيعة الشرق هي طبيعة حوارية، وحوار الأديان أو حوار الحضارات منهج شرقي عربي إسلامي عرفته المنطقة منذ زمن بعيد، ونضج في ظل الدولة الإسلامية نضوجاً لم يعرفه العالم الغربي في جميع عصوره، فليس غريباً أن يكون تقبلنا لمفهوم حوار الأديان سريعاً في استجابته وسريعاً حتى في آليته.

وطبيعتنا الحوارية الحضارية تنبني على أسس عقيدية وأخرى شخصية تتعلق بالبنية النفسية والعقلية التي تشكل أساساً في بناء الذات، لم تعرف العقلية العربية بعد الإسلام إلغاء الآخر لأن المفهوم العالمي الإنساني للعلاقة بين الشعوب تقوم على بدهية مفترضة تستند إلى منظور قرآني يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ومعنى التعارف هو أن يتحاوروا حتى يعرف كل إنسان أخاه الإنسان، يعرف عقليته ونفسيته وسلوكه ومبادئه والقيم التي صنعت مقاييسه وموازينه الإنسانية، ونعتقد أن لا مشكلة في المفهوم بل المشكلة في فهم الطرف الغربي للمفهوم.

فالطرف العربي بإسلامه ومسيحيته يؤمن بالقيم المطلقة من عدل وحق وحب إيماناً طبيعياً، ولا يحتاج واحد لتفسير هذه القيم، لكن الغرب يرى هذه القيم نسبية وليست مطلقة، فما هو خير عندنا قد يكون شراً عندهم، وما يكون عدلاً لدينا قد يكون عندهم ظلماً، وما يكون حقاً عندنا قد يكون عندهم باطلاً، ونعتقد أن السلوك الحضاري والتحرك البشري عبر التاريخ هو الذي يحدد كيفية الفهم لهذه القيم، على الرغم من أن العرب حينما دخلوا إسبانيا صنعوا حضارة وفكراً، واستطاعت جهودهم العلمية والفكرية أن تُدخل العالم الغربي في دائرة النور، إلا أن الغرب أو لنقل بعض الغربيين المتعصبين يرون في ذلك احتلالاً واستعماراً، فهل جر العرب الويلات على

أهل إسبانيا؟ أم أنهم استطاعوا وبسرعة فائقة الاندماج والتزاوج حتى ذابت الفروق العرقية والدينية، هل طرد العرب السكان الأصليين وأجروا بحقهم مذابح جماعية كما فعل الإفرنج الصليبيون عندما دخلوا أنطاكيّة والرها وطرابلس وبيت المقدس؟

ما النتائج التي ترتبت على فتح العرب لإسبانيا؟ وما النتائج التي ترتبت على غزو الإفرنج للشام ومصر؟.

لا نريد أن نردد مرة بعد الألف ما قاله المؤرخون وشهود العيان على ما جرى فقد أصبح الجميع يعرفون التفاصيل، وهذه كتب الغرب تشهد على ما جرى مهما حاولوا التخفيف أو التهويل.

على أية حال فإن الغرب يدرك أن طلبه الخروج من أسر التاريخ يعني تناسي ما فعله الإفرنج من وصمة عار في تاريخ الحروب الصليبية، ويعني أيضاً تناسي ما للعرب من فضل على أوربا بسبب وجود الحضارة الأندلسية، وبسبب بقائها ثمانية قرون في الأندلس.

ومع ذلك كله فالحروب التي جرت في قرون خلت تبقى أحداثاً حقيقية وقعت فعلاً، وليست هي خيالاً أو تخيّلاً، فلا يمكن حذفها من التاريخ أو الذاكرة.

ولكن إذا كان حوار الثقافات والحضارات أو حوار الأديان يتطلب تجاوز الماضي وصوره السوداء والانتقال إلى حاضر حواري يتحاور فيه ندّان متساويان متكافئان فليس في الأمر مشكلة، لكنا مع ذلك كله لا يمكن أن نتجاوز الواقع الراهن لأنه شاهد حاضر على عدم مصداقية الغرب في طرحه لمفهوم الحوار وآلياته.

ففلسطين تُحتل من قبل الصهاينة الغربيين، والغرب هو الذي صنع هذا الكيان الصهيوني الغاصب، وآثار الاستعمار الغربي البريطاني الفرنسي الإيطالي الإسباني لا تزال ماثلة للعيان على الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على نهاية هذا الاستعمار المباشر.

والغرب نفسه لا يزال مأسوراً للمغالطات التاريخية والفكرية والعقدية، ولا يزال يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، والحوار الذي يطرحه الغرب لا يستند إلى أسس صحيحة أو مقبولة، فهو حوار القوي مع الضعيف، لا تكافؤ في المعطيات

المالية العسكرية الاقتصادية، ولا تساوٍ في الحيثيات، والحوار الحقيقي الذي يحمل معناه يخشاه الغرب ويرفضه، لأنه يضعه في الزاوية ويحصره أمام الحقائق المأساوية، ويضعه وجهاً لوجه مع الثوابت التي حاول تحريفها أو تشويهها أو طمس معالمها.

لا شك أن الحوار بحد ذاته يعني إبداء كل طرف وجهة نظره في قضايا عديدة، ومنها ما يخص الأديان كعقائد وشرائع، ومنها ما يخص القضايا الاجتماعية الإنسانية والأمراض النفسية والعقلية التي يتخبط فيها الإنسان في هذا العصر.

والواقع يقول لنا: إن الغرب بشكل عام لا يدين بنفسه للكنيسة الكاثوليكية، فهناك التيارات البروتستانتية الأنجليكانية تتحكم بشكل عام بالعالم الغربي، فما ترفضه الكنيسة الكاثوليكية قد تقبله الكنائس البروتستانتية، ولعلنا نتذكر موقف الكنيسة الكاثوليكية والبابا من مؤتمر بكين للمرأة الذي عقد عام 1997م، فالكنيسة وقفت ضد الإجهاض، وضد الإباحية والزواج المثلي الشاذ، بينما ممثلو البروتستانت دافعوا عن حرية الإنسان المطلقة، وعن الإجهاض وحرية المرأة إلى آخر ما هنالك من قضايا حسب مفهومهم، فالحوار المفترض قد يكون من خلال موقف الكنيسة الكاثوليكية، وموقف الإسلام من تلك القضايا، ولكن لا يمكن الحوار مع الطرف الآخر الذي لا قاسم مشترك معه، فالاختلاف يقع بنسبة (180) درجة لأن القيم ومعاييرها متناقضة متضادة ولا يمكن التقريب بين الطرفين فيها.

وقد يرى الغرب أن الحوار هو وسيلة إقناع، ولكن الذي يستحيل هنا هو إقناع العربي والمسلم، وكذلك المنتسب إلى الكنيسة الكاثوليكية بأن زواج المثلين رجل ورجل، وامرأة وامرأة هو من مستلزمات الحرية الشخصية.

إن طبيعة الإنسان في الواقع العربي الإسلامي تحكمها قيم ومفاهيم تراكمت عبر التاريخ منذ قيام الحضارات العربية القديمة، وجاء الإسلام فنظمها وأطّرها لتكون منهجاً سلوكياً وعقلياً لبني الإنسانية، وهذه القيم والمفاهيم ثوابت لا يمكن تجاوزها.

ومن المفترض أن تكون طبيعة الإنسان الغربي الذي تبنى المسيحية عقيدة ومنهجاً طبيعة لا تبتعد كثيراً عن الطبائع الإنسانية في أي مكان من العالم، ولكن يبدو أن تخلي الغرب عن مبادئ المسيحية الحقة، وانحرافه عن الأسس الأخلاقية

الدينية التي نادى بها المسيح ـ عليه السلام ـ هو الذي يدفعه للدفاع عن الشذوذ والإباحية، ومن ثم طرحه لها على مائدة الحوار، ومن هذا المنطلق نرى أن هناك استحالة للحوار مع الغرب على تلك الأسس التي طرحها، هذا إذا اقتصرنا على هذا الجانب فحسب، فكيف يمكن أن يتم التحاور مع الغرب وهو يرفض الاعتراف بحقوقنا التاريخية الثابتة في فلسطين، والمسجد الأقصى، وكذلك حقنا أن تكون لنا شخصيتنا المستقلة، وهويتنا العربية الإسلامية.

الحوار مع الغرب يعني أن يصبح المسجد الأقصى هيكل اليهود المزعوم، وأن تلغى كل الآثار العربية الإسلامية والمسيحية الشرقية من الأرض الفلسطينية، ويعني بالمحصلة القبول بالاستعباد والاسترقاق، ومن ثم القبول بالتسيد اليهودي الصهيوني الغربي على البشرية جمعاء، وليس فقط على العرب والمسلمين، وأخيراً، الاعتراف بأن التاريخ العربي الإسلامي ليس إلا حبراً على ورق، وليس دماء أريقت، وأرواحاً أزهقت، وأرضاً مقدسةً احتُلت واستبيحت.

وإذا كان السلف من أجدادنا قد سطروا لنا في التاريخ ملاحم وبطولات وهم يدافعون عن أرضنا ووجودنا في اليرموك وحطين وعين جالوت، فقد وجب علينا أن نفي حقهم من الترحم والإعجاب والاعتزاز والتقدير، ولكننا نحن أبناء هذا العصر إذا حاورنا الغرب وكان مضمون حوارنا بعيداً عن فلسطيننا، ومقدساتنا، وحقوقنا الإنسانية وهويتنا، فماذا يمكن أن يقول أبناؤنا وأحفادنا عنا؟ هل يترحمون علينا ويشكروننا؟ أم أنهم يخبئون وجوههم خجلاً من أفعالنا وهروباً من فضائحنا؟ هذا إذا لم تحل لعنتهم علينا.

وخلاصة القول في هذا عندما تتوفر لدى المتحاورين قناعات مشتركة بالقيم والمثل والعبر من التاريخ ويتخطون الأنا والفوقية يستطيعون أن يفرشوا الأرض مائدة للحور وإلا . . . وإلا . . . .